

الفصل الأول

**النظم وتضافر القرائن ونحو النص
جذور النظرية وعناصر مكوناتها**

obeikandi.com

توطئة:

لا تزال نظرية النظم تلقى بظلالها على المدرسين اللغوي والبلاغي، حيث يستقى أكثر البلاغيين واللغويين مادتهم من أفكار هذه النظرية .

والحق أن الخط الفاصل بين دراسات البلاغيين ودراسات اللغويين أصبح دقيقاً ودائماً التعرج، إلى الحد الذي يصعب معه الفصل بين دراسات هؤلاء وأفكار أولئك، بل وامتد تأثير هذه الأفكار عن النظم والتعليق إلى الدرس الأدبي الحديث حيث استقى نقاد الأدب - إبان حديثهم عن البنيوية والتفكيك والتلقي - أكثر مادتهم من أفكار هذه النظرية التي تعنى بدراسة العلاقات بين البني والوحدات اللغوية حين تكون في حالة تركيب للوصول إلى دلالات المفردات أفقياً ومن ثم الوصول إلى ماسماه النحاة الأوائل دلالات التراكيب.

ولقد كان الجرجاني (472هـ) عبقرياً عندما قال: " واعلم أن النظم ليس إلا أن تضع كلامك الوضع الذي يقتضيه علم النحو وتعمل على قوانينه وأصوله " (1) إلى آخر نصه الشهير، حيث قصد بالنحو معناه اللغوي وهو انتحاء طرائق العرب في نظم الآراء والأفكار والإبداعات ولم يقصد بالنحو معناه الاصطلاحي أو ظاهر معناه من حيث هو قواعد وتمرينات عقلية.

والدكتور تمام حسان واحد من المفكرين اللغويين المعاصرين الذين أفادوا من أفكار هذه النظرية، وقد اعترف بذلك في مقدمة كتابه (اللغة العربية معناها ومبناها)، فقال: "لما ظهر الاتجاه البلاغي إلى دراسة المعنى كان من طلائع كتبه دلائل الإعجاز وأسرار البلاغة للعلامة عبد القاهر الجرجاني الذي أعترف لآرائه الذكية بقدر غير يسير من الفضل على الجزء الخاص بتناول المعنى النحوي والدلالي " (2).

إلا أن الدكتور تمام حسان استطاع - بذكاء المفكر - أن يفيد من أفكار الدرس اللغوي الحديث في الغرب - أفاد من أفكار (دي سوسير) ونظريته عن اللغة بوصفها نظاماً من العلامات إلى جانب إمامه بالفكر التراثي النحوي، فطور نظريته التي سماها "تضافر القرائن"، وقال إنها: "أجراً محاولة شاملة لإعادة ترتيب الأفكار اللغوية تجرى بعد سيويوه وعبد القاهر" (3) أى أن فكر الدكتور تمام حسان قد انبني على أفكار عبد

(1) دلائل الإعجاز 68 .

(2) اللغة العربية معناها ومبناها 18 .

(3) اللغة العربية معناها ومبناها 10 .

القاهر الجرجاني والفكر التراثي العربي إلى جانب معطيات الدرس اللغوي الحديث في الغرب.

ومن الأفكار المنبئية علي أفكار عبد القاهر الجرجاني أيضا ما يسمي في الدرس الحديث بنحو النص، وهو " نمط من التحليل ذو وسائل بحثية مركبة، تمتد قدرتها التشخيصية إلى مستوى ما وراء الجملة بالإضافة إلى فحصها لعلاقة المكونات التركيبية داخل الجملة، وتشمل علاقات ما وراء الجملة مستويات ذات طابع تدريجي يبدأ من علاقات ما بين الجمل، ثم الفقرة، ثم النص أو الخطاب بتمامه " (1).

وهذا البحث محاولة لسرد عناصر النظرية اللغوية العربية من خلال المقارنة بين ثلاث النظريات (النظم وتضافر القرائن ونحو النص) التي أرى أنها يمكن أن تمثل بجذورها أركان النظرية اللغوية العربية، أى أنه بحث في جذور النظرية اللغوية العربية وعناصر مكوناتها مع مقابلة ذلك بعناصر النظرية الغربية، وأقول (عناصر) إذ ليس بوسعنا أن نستفيض في شرح النظرية اللغوية العربية من خلال هذه النظريات الثلاث في بحث موجز.

وليس بمقدورنا عندما نتحدث عن النظرية اللغوية العربية متمثلة في هذه النظريات الثلاث أن نعزل النظريات عن عوالمها التي أحاطت بها وأثرت فيها، فكثير من أفكار ومعطيات النظريات الثلاث قد تناولتها جهود علماء العربية الأفاضل فقد تحدث ابن جني (392هـ) عن العلامة اللغوية وفكرة الاتصال (التداولية) عندما حد اللغة بأنها "أصوات يعبر بها كل قوم عن أغراضهم" (2).

ومن قبله تحدث الجاحظ (255هـ) عن إشكالية اللفظ والمعنى في معرض حديثه عن البيان في سفره (البيان والتبيين) (3) " فقد تكون النظرية إنتاج مجموعة عقول أو جيل واحد من العقول، وقد تكون أيضا إنتاج مجموعة عقول تنتمي لعدد من الأجيال " (4) إلا أن عبد القاهر الجرجاني هو أول من عكف على تطوير نظرية لغوية شاملة حيث حدد مجموعة القوانين والقواعد التي يبنى عليها موضوع النظم والتعليق.

(1) العربية من نحو الجملة إلى نحو النص :للدكتور سعد مصلوح 407 .

(2) الخصائص 44/1 .

(3) انظر البيان والتبيين 60 /1 .

(4) المرايا المقعرة 198 .

جذور النظرية :

لم يكن عبد القاهر الجرجاني بديع أفكاره، ذلك أنه لم ينشئ أفكاره من عدم " لكنه استطاع أن يطور إنجازات البلاغيين السابقين على مدى قرنين إلى نظرية متكاملة للنظم تقوم على تأكيد شبكة لعلاقات بين العلامات اللغوية أفقياً ورأسياً " ⁽¹⁾ هذه النظرية تضاهي بحق ما وصل إليه علم اللغة الحديث في الغرب بل يمكن القول إن نظرية النظم تعد جذراً أو أساساً لنظريتي القرائن ونحو النص ولكن من أين استقى الجرجاني مادة هذه النظرية ؟. إن أقدم نص عُثر عليه في كتب العربية يتحدث عن النظم يرجع إلى ابن المقفع، يقول فيه: " فإذا خرج الناس من أن يكون لهم عمل وأن يقولوا قولاً بديعاً فليعلم الواصفون المخبرون أن أحدهم وإن أحسن وأبلغ ليس زائداً على أن يكون كصاحب فصوص وجد ياقوتاً وزبرجداً ومرجاناً فنظمه قلانداً وسموطاً وأكاليب ووضع كل فص موضعه " ⁽²⁾، بهذا يكون ابن المقفع قد تحدث في وقت مبكر عن النظم وإن كان معنى النظم عنده يختلف عن النظم عند عبد القاهر الجرجاني.

ولعل الجاحظ عندما تحدث عن عملية الاتصال (التداولية) قد تطرق إلى ركن مهم من أركان هذه النظرية، " المعاني القائمة في صدور الناس المتصورة في أذهانهم والمتخلجة في نفوسهم والمتصلة بخواطرهم والحادثة عن فكرهم مستورة خفية وبعيدة وحشية محجوبة مكنونة وموجودة في معنى معدومة لا يعرف الإنسان ضمير صاحبه ولا حاجة أخيه وخليطه ولا معنى شريكه والمعاون له على أموره وعلى مالا يبلغه من حاجات نفسه إلا بغيره، وإنما يحى تلك المعاني ذكرهم لها وإخبارهم عنها واستعمالهم إياها " ⁽³⁾ فبالاكتفاء والإخبار والاستعمال تحيا المعاني المستورة والأفكار المعدومة، وفي كتاب الحيوان تطرق إلى ركن مهم آخر من أركان النظرية اللغوية العربية وهو النظم يقول: "إن المعاني مطروحة في الطريق يعرفها العجمي والعربي والبدوي والقروي والمدني إنما الشأن في إقامة الوزن، وتخير اللفظ وسهولة المخرج وكثرة الماء وفي صحة الطبع وجودة السبك " ⁽⁴⁾.

(1) المرايا المقعرة 235 .

(2) عبد القاهر الجرجاني بلاغته ونقده: أحمد مطلوب، الكويت، وكالة المطبوعات، 1973 ص 53 .

(3) البيان والتبيين 60/1 .

(4) الحيوان 3/ 131-132 .

والحق أن بعض رجال البيان والبلاغة العرب أخذوا المعنى السطحي الظاهر لمقولة الجاحظ باعتباره تركيزاً على اللفظ دون المعنى، ومن هؤلاء أبو هلال العسكري في كتابه (الصناعتين) ⁽¹⁾ يقول: " ليس الشأن في إيراد المعاني لأن المعاني يعرفها العربي والعجمي " ⁽²⁾، والصواب أن الجاحظ عندما يتحدث عن اللفظ في كتابيه (البيان والتبيين) و(الحيوان) " لا يقصد اللفظ المفرد بل ما ينتظم بالألفاظ من عبارات " ⁽³⁾، وليس أدل على ذلك من ذكره لفظة (السبك) قاصداً بها انتظام الألفاظ في عبارات، أى أن الجاحظ يتحدث في الفقرة السابقة عن النظم لا عن ثنائية اللفظ والمعنى، وإنما يقصد بلفظ (المعاني) عملية الاتصال التي يعرفها العربي والعجمي والبدوي والمدني والتي يمكن أن يعبر عنها بوسائل أخرى تتمثل في العقد أو الإشارة أو الخط ⁽⁴⁾.

ولعل أقرب الكتب التي فتحت المجال لعبد القاهر في النظم كتاب أبي عبد الله محمد بن زيد اللواسطي (306هـ) المسمى (إعجاز القرآن في نظمه وتأليفه)، فالتعنوان يشير إلى أن موضوع الكتاب هو خصائص النظم القرآني التي تظهر جانب الإعجاز فيه، كما أن عبد القاهر الجرجاني قد شرح هذا الكتاب شرحين أحدهما صغير والآخر كبير فلولا أن الشيخ وجد في الكتاب ما يوافق نظمه ما شرحه مرتين ⁽⁵⁾.

ويفاجننا أحمد بن محمد بن إبراهيم الخطابي (388هـ) بنص " يؤكد أن كل أفكار عبد القاهر الجرجاني لم تكن جديدة بالكلية فقد كان اجتهد النحويين والبلغاء قد وصل إلى مرحلة تطوير نظرية لغوية تكاد تكون كاملة " ⁽⁶⁾، يقول الخطابي متحدثاً عن إعجاز القرآن: " إنما تعذر على البشر الإتيان بمثله لأمر ثلاثة منها أن علمهم لا يحيط بجميع أسماء اللغة العربية وبألفاظها التي هي ظروف المعاني والحوامل لها ولا تدرك أفهامهم جميع معاني الأشياء المحمولة على تلك الألفاظ، ولا تكمل معرفتهم لاستيفاء جميع وجوه النظم التي يكون ائتلافها وارتباط بعضها ببعض، وإنما يقوم الكلام بأشياء ثلاثة: لفظ حامل، ومعنى به قائم، ورباط لهما ناظم " ⁽⁷⁾، يتحدث الخطابي في هذا النص عن اللغة

(1) انظر: المرآيا المقعرة 276 .

(2) كتاب الصناعتين 71 .

(3) اللفظ والمعنى في البيان العربي: محمد عابد الجابري 38 .

(4) انظر: البيان والتبيين 61/1 .

(5) انظر: نظرية العلاقات أو النظم بين عبد القاهر والنقد الغربي الحديث للدكتور محمد نايل 14 .

(6) المرآيا المقعرة 233 .

(7) بيان إعجاز القرآن، ثلاث رسائل في إعجاز القرآن للرماني والخطابي وعبد القاهر 27-26 .

بوصفها نظام علامات وجهرة من العلاقات تتمثل في النظم التي تأتلف ويرتبط بعضها ببعض، ويخلص الخطابي فكره اللغوي بإيجاز شديد في الجزء الأخير من هذا النص عندما يذكر أن الكلام يقوم بثلاثة أشياء: لفظ حامل، ومعنى به قائم ورباط لهما ناظم.

ويتقارب فكر القاضي عبد الجبار (415 هـ) في حديثه عن مفهوم الضم مع فكر عبد القاهر الجرجاني تقارباً جعل الدكتور عبد العزيز حمودة يصف هذا التقارب بأنه وصل إلى درجة تدفع البعض إلى إرجاع فضل نظرية النظم إلى عبد الجبار وليس إلى عبد القاهر ⁽¹⁾ يقول القاضي عبد الجبار: "اعلم أن الفصاحة لا تظهر في أفراد الكلام وإنما تظهر في الكلام بالضم على طريقة مخصوصة، ولا بد مع الضم أن يكون لكل كلمة صفة، وقد يجوز في هذه الصفة أن تكون بالمواضع التي تتناول الضم، وقد تكون بالإعراب الذي له مدخل فيه وقد تكون بالموقع " ⁽²⁾.

يوضح عبد الجبار مفهوم الضم بأن الكلمة تدل على مدلول داخل التركيب أو في بنية الكلام لكنها حال أفرادها خارج التركيب لا تدل على شيء، إذ تحقق العلامة اللغوية (اللفظ أو الكلمة) معنى مرتبطاً بعلاقات البنى اللغوية، والحركات الإعرابية هي التي تحدد هذا المعنى، "إن عبد الجبار يعطى النحو دوراً يمهّد للدور الأكبر الذي سيعطيه له عبد القاهر في النظم. المهم أننا نتحدث عن نظم قائم على شبكة من العلاقات تتحكم فيها قواعد النحو لتحقيق الدلالة " ⁽³⁾ وإذ أولى كل من عبد الجبار والجرجاني دوراً كبيراً للنحو في الضم والنظم فإنه يمكن أن نعتبر كتاب سيبويه في النحو جذراً أصيلاً من جذور نظرية النظم أيضاً.

أما عن القرائن فإن نظرية النظم تعد جذراً استقى منه الدكتور تمام حسان أصول فكرته، وقد اعترف الدكتور تمام بفضل آراء عبد القاهر وأفكاره في مقدمة كتابه (اللغة العربية معناها ومبناها) حين قال: "لما ظهر الاتجاه البلاغي إلى دراسة المعنى كان من طلائع كتبه دلائل الإعجاز وأسرار البلاغة للعلامة عبد القاهر الجرجاني الذي أعترف لآرائه الذكية بقدر غير يسير من الفضل " ⁽⁴⁾. كما أن لفظة (القرائن) أو (قرينة) جاءت في مواضع كثيرة في كتب تراثنا النحوي، أهمها ما جاء في حاشية العليمي على التصريح

(1) المرايا المقعرة 234 .

(2) المغنى فى أبواب التوحيد والعدل، للقاضى عبد الجبار 199/16 .

(3) المرايا المقعرة 235 .

(4) اللغة العربية معناها ومبناها 17- 18 .

أن أهم قرائن منع اللبس القرينة اللفظية نحو ضرب زيد عمراً، وقتلت سلمى عيسى والمعنوية كأرضعت الصغرى الكبرى، وأكل الكمثرى موسى⁽¹⁾، وربما كان الانطلاق الحقيقي لفكرة الدكتور تمام من هذا الموضع حيث قسم الدكتور تمام حسان فيما بعد القرائن قسمين رئيسيين: قسم للقرائن اللفظية وآخر للقرائن المعنوية⁽²⁾.

وإذا كان عبد القاهر الجرجاني هو أول من حاول - بفكر منظم - الاهتمام بالعلاقات ودورها في بناء الجملة فيما سماه بنظرية النظم إلا أنه لم يذكر لفظة (القرينة) صراحة في نصوصه، أما الدكتور تمام حسان فهو الذي وضع آلية واضحة لدراسة النحو العربي في إطار فكرة (تضافر القرائن) هذا وقد أفرد العالم اللغوي أبو زيد النحوي (سعيد بن أوس الأنصاري) كتاباً سماه (القرائن)⁽³⁾ وهو من الكتب التي فقدت⁽⁴⁾، ويتضح من عنوان هذا الكتاب أنه يعنى بالقرائن .

ولم يغفل الدكتور تمام اهتمام الدراسات اللغوية الحديثة بدراسة المعنى وأن المعنى في هذه الدراسات صدى من أصداء الاعتراف باللغة كظاهرة اجتماعية⁽⁵⁾ أى أن الدكتور تمام حسان أفاد من ثلاثة جذور انبنت عليها أفكاره عن تضافر القرائن هي: التراث النحوي واللغوي العربي الذى ورد فيه استخدام مصطلح (القرينة) أو (القرائن) بالإضافة إلى إلمامه بهذا التراث، ونظرية النظم لعبد القاهر الجرجاني بجذورها ومنابع أفكارها، وعلم اللغة الحديث في الغرب بدءاً من أفكار دى سوسير ومحاضراته في اللغة وانتهاءً إلى علم النص .

وعن (نحو النص) فقد بدأت إرهاصات هذا العلم على يد العالم اللغوي (هاريس) في بداية النصف الثاني من القرن العشرين، ثم تطورت الدراسات النصية على يد العالم الهولندي (فان دايك) بعد عقدين من أفكار هاريس عن النص ويعد فان دايك المؤسس الأول لعلم النص أو نحو النص حيث بدأ " ببيان أوجه عدم كفاية نحو الجملة لوصف ظواهر تتجاوز حدود الجملة، غير أن ذلك لا يعنى رفض مقولات نحو الجملة أو التقليل من قيمتها أو التشكيك في صحتها بل إن الأمر بالنسبة له ولغيره من علماء النص يمكن

(1) انظر: حاشية العليمي على التصريح 1/ 281 .

(2) انظر: اللغة العربية معناها ومبناها 194 .

(3) انظر: الفهرست لابن النديم 84 .

(4) انظر: تاريخ الأدب العربي، لبروكلمان 2/ 146 .

(5) انظر: اللغة العربية معناها ومبناها 28 .

أن يتحدد في أنه قد تحتّم بعد إدخال عناصر دلالية وتداولية إلى الوصف والتحليل اللغويين " (1)، حتى أصبح نحو النص الذى وُلد في عباءة علم النص حقيقة راسخة على يد (روبرت دى بوجراند) و(دريسلر) في الثمانينات من القرن المنصرم (2)، حيث حددا المعايير السبعة التى ينضبط من خلالها النص، ويتأكد دور الربط من خلالها لتحقيق ما يطلق عليه (النصية)، وهذه المعايير هى: الربط والتماسك الدلالي والقصدية والمقبولية والإخبارية (الإعلام) والموقفية والتناص، ولم يقصد دى بوجراند ودريسلر ضرورة تحقق هذه المعايير السبعة في كل نص، وإنما يتحقق الاكتمال النصي بوجودها، وأحيانا تتشكل نصوص بأقل قدر منها (3).

وكان الدكتور سعد مصلوح من أوائل الذين نقلوا الفكر الغربي عن نحو النص إلى العربية وذلك في مقالة كتبها في الكتاب التذكاري المهدى إلى الأستاذ عبد السلام هارون في ذكره الثانية بكلية الآداب جامعة الكويت عام (1989-1990) بعنوان " العربية من نحو الجملة إلى نحو النص " ومن بعده أصدر محمد خطابي كتابه (لسانيات النص - مدخل إلى انسجام الخطاب) ضمن مطبوعات المركز الثقافي العربي عام 1991 ثم أصدر الدكتور صلاح فضل كتابه (بلاغة الخطاب وعلم النص) ضمن سلسلة عالم المعرفة بالكويت عام 1992، إلا أن كتاب (علم لغة النص * المفاهيم والاتجاهات) للدكتور سعيد حسن بحيرى الذي نُشر عام 1993 ضمن منشورات مكتبة الأنجلو المصرية يعد أول كتاب مفصل نقل علم اللغة النصي إلى العربية نقلا وافيا، ثم توالى بعد المؤلفات حيث ترجم الدكتور تمام حسان كتاب (النص والخطاب والإجراء) لـ دى بوجراند ونشره عام 1998 عن عالم الكتب بالقاهرة .

ويمكن القول إن نظرية النظم هي المعين الذي استقى منه علماء النص أفكارهم حيث تتقارب أفكار النظريتين إلى الحد الذي يصعب معه تحديد أي النظريتين أفادت من أفكار الأخرى، وعندما يصل التقارب إلى هذا الحد يكون التاريخ حدا فاصلا لتحديد أى النظريتين أفادت من الأخرى، وبالاكتكام إلى فكرة الزمن نجد أن نظرية النظم قد سبقت نحو النص بتسعة قرون تقريباً حيث اكتملت أركان نظرية النظم على يد كل من القاضي عبد الجبار وعبد القاهر الجرجاني في القرن الخامس الهجري في حين ظهرت

(1) علم لغة النص، للدكتور سعيد حسن بحيرى 210 .

(2) انظر: نحو النص اتجاه جديد فى دراسة النحو العربى، للدكتور أحمد عفيفى 279.

(3) انظر: علم لغة النص، للدكتور سعيد حسن بحيرى 142 .

أفكار نظرية النص في نهايات القرن الرابع عشر الهجري (منتصف القرن العشرين ميلادياً)، هذا وقد ساعدت كثرة التأليف وازدهار حركة الترجمة والنقل بدءاً من العصر العباسي إلى الآن - مع مراعاة فترات الانحطاط عربياً وأجنبياً - على تأثر الأفكار بعضها ببعض، ولا نستبعد أن يكون علماء الغرب قد أفادوا من كتاب دلائل الإعجاز إما بترجمته إلى لغاتهم أو ربما ساعدت البعثات العلمية العربية في منتصف القرن التاسع عشر على نقل التراث اللغوي العربي إلى الغرب ومن ثم بنى الغرب أفكارهم على هذا التراث .

وهذا لا يعنى أن الغرب لم يصف جديداً في تطور النظرية، إنهم فعلوا الخطوة التى كان على المفكرين العرب أن يفعلوها في القرن السادس الهجري لإكمال جهود عبد الجبار والجرجاني، فقدموا (أي الغرب) للعالم نظرية لغوية مكتملة الأركان منظمة الأفكار.

هذا عن جذور (نحو النص) من الوجهة النظرية، أما عن جذور الفكرة تطبيقياً فإن تفسير سور القرآن الكريم يعد تطبيقاً لفكرة نحو النص فقد درس علماء التفسير النص القرآني وطبقوا معايير ضبط النص دون أن يعرفوا فكرة المعايير، فدرسوا الربط والتماسك الدلالي ودرسوا الإخبار أو الإعلام والقصد إبان تحدثهم عن أهداف النص القرآني وما يستفاد من السور، ودرسوا معيار المقامية حين تحدثوا عن أسباب التزول ودرسوا التناص (القرآن يفسر بعضه بعضاً)، والمقبولية التى تتمثل في مراعاة أحوال المخاطبين، بل إن علماء التفسير جعلوا كل سورة نصاً مستقلاً، وكل نص من هذه النصوص ينضوى ضمن نص أكبر هو النص القرآني بجميع سورته وثمة محاولة أجراها حازم القرطاجني في كتابه (منهاج البلغاء وسراج الأدباء) ⁽¹⁾، في تحليله لقصيدة المتنبي (أغالب فيك الشوق والشوق أغلب) حيث قسم القصيدة إلى أجزاء وسمى كل قسم فصلاً، ثم أشار إلى طريقة وصل الفصول بعضها ببعض، إذ يشترط أن يكون معنى كل فصل تابعاً لمعنى سابقه، ثم أورد القصيدة كاملة محلاً للعلاقة بين أجزائها ووحداتها المكونة لها على هذا الأساس الدلالي الذي لا يقف عند حدود التعالق النحوي بين الجملتين ⁽²⁾.

(1) انظر: منهاج البلغاء وسراج الأدباء، لحازم القرطاجني 298 .

(2) انظر: بلاغة الخطاب وعلم النص، للدكتور صلاح فضل 264 .

مكونات النظرية : اللغة نظام علامات وشبكة علاقات :

(أ) نظام العلامات :

اللغة - عند سوسير - نظام من العلامات ولا تعد الأصوات لغة إلا عندما تعبر عن الأفكار أو تنقلها، وإلا فهي مجرد أصوات، ولكي تعبر الأصوات عن الأفكار أو تنقلها ينبغي لها أن تكون جزءاً من نظام من الأعراف يربط بين الأصوات والأفكار، وبعبارة أخرى ينبغي للأصوات لكي تعبر عن الأفكار أن تكون جزءاً من نظام من العلامات.

والعلامة هي اتحاد بين شكل يدل يسميه سوسير الدال وفكرة تدل عليها تسمى المدلول⁽¹⁾ وقد جعل سوسير من العلاقات بين البنى اللغوية مدخلا للتفكير في طريقة الوصول إلى حقائق الأشياء من خلال منظور يحدد ما بينها من علاقات⁽²⁾ وقد لاحظ نوعين من العلاقات اللغوية، علاقات رأسية تصريفية تقوم بين الكلمة المذكورة وكل ما يمت إليها بصلة لفظية أو معنوية من كلمات لم تذكر في النص، وأخرى أفقية تركيبية تقوم بين الكلمة وسائر الكلمات المتجاورة في الجملة⁽³⁾ وعلى هذه المقولات بنى علماء اللغة في الغرب أفكارهم حتى طوروا نظرية النص، والحق أن هذه الأفكار درسها علماء اللغة العرب منذ عشرة قرون تقريباً فقد أفرد ابن جني (392 هـ) باباً في كتابه (الخصائص) للقول على اللغة وما هي، حد فيه اللغة بأنها " أصوات يعبر بها كل قوم عن أغراضهم " ⁽⁴⁾، وعلى الرغم من قدم هذا التعريف وبساطته إلا أنه يحمل بين طياته ثلاث أفكار من أفكار علم اللغة الحديث في الغرب حيث تعبر كلمة (أصوات) عن فكرة العلامة ومفهومها، في حين تعبر مفردات النص الأخرى عن فكرتى الاتصال (التداولية) والقصد.

أما عن اعتبارية العلامة التي يظن الغرب أن لسوسير قصب السبق فيها فقد تحدث ابن جني (392 هـ) في كتابه الخصائص عن هذه الفكرة أثناء حديثه عن أصل اللغة ألهام هي أم اصطلاح⁽⁵⁾ فقد تحدث عن المواضع اللغوية وأن أصل اللغة لا بد فيه من

(1) انظر: فرديناندى سوسير (أصول اللسانيات الحديثة وعلم العلامات) لجوناثان كلير، ترجمة عز الدين إسماعيل 72 .

(2) انظر: المرايا المقعرة، للدكتور عبد العزيز حمودة 203 .

(3) انظر: مبادئ علم الأسلوب العربى، لشكرى عياد 49 .

(4) الخصائص 44/1 .

(5) انظر: الخصائص 54 /1 .

المواضعة يقول: " ثم لك من بعد ذلك أن تنقل هذه المواضعة إلى غيرها فتقول الذى اسمه إنسان فليجعل مكانه مرد والذى اسمه رأس فليجعل مكانه سر وعلى هذا بقية الكلام"⁽¹⁾ فقد فطن علماء العربية إلى مفهوم العلامة اللغوية وفكرة اعتبارية العلامة وأن اللغة نشاط اجتماعى قبل سوسير بعشرة قرون تقريبا، وفطنوا أيضا إلى العلاقات الأفقية والعلاقات الرأسية حيث أورد سيبويه لفظ (المعاقبة) فى كتابه قاصداً به العلاقة الرأسية يقول: " وكأنه شىء يصير بدلاً من شىء كالمعاقبة " ⁽²⁾ ليس ذلك فحسب بل أفرد ابن جنى كتابا فى هذا الموضوع سماه (التعاقب) وهذا الكتاب مفقود حتى الآن وقد أشار إليه فى كتابه (الخصائص) بقوله " وقد ذكرنا فى كتابنا الموسوم بالتعاقب من هذا النحو ما فيه كاف بإذن الله تعالى " ⁽³⁾، إلا أن بعض المفكرين يستخدمون مصطلح التعاقب قاصدين به التابع الأفقى لا الاستبدال الرأسى ومن هؤلاء الدكتور عبد العزيز حمودة حيث يقول " العلاقة الأفقية تربط بين المفردات الواردة داخل البنية اللغوية أو الجملة على أساس التعاقب "⁽⁴⁾ ويقصد بالتعاقب التابع أو التوالى أفقيا، والحق أن معظم علماء العربية الأوائل أمثال سيبويه وابن جنى وابن يعيش ⁽⁵⁾ والزجاجى ⁽⁶⁾ يستخدمون التعاقب أو المعاقبة بمعنى الاستبدال الرأسى لا بمعنى التابع الأفقى.

هكذا يمكن القول إن الأفكار اللغوية عن نظام اللغة وعن فكرة العلامة ومفهومها واعتباطيتها، والخورين الأفقى التركيبى والرأسى التعاقبى الاستبدالى كانت متفرقة فيما قبل عبد القاهر الجرجانى الذى رتب هذه الأفكار ثم بنى عليها تفكيره اللغوى، فنراه يتحدث عن الخورين الأفقى والرأسى حيث يقول: " إن الألفاظ لا تتفاضل من حيث هى ألفاظ مجردة ولا من حيث هى كلم مفردة، وأن الألفاظ تثبت لها الفضيلة وخلافها فى ملائمة معنى اللفظة لمعنى التى تليها أو ما أشبه ذلك مما لاتعلق له بصريح اللفظ، ومما يشهد بذلك أنك ترى الكلمة تروك وتؤنسك فى موضع ثم تراها بعينها تثقل عليك وتوحشك فى موضع آخر " ⁽⁷⁾ فقولوه (ملائمة معنى اللفظة لمعنى التى تليها) دلالة على الخور الأفقى التركيبى.

(1) الخصائص 54/1 .

(2) كتاب سيبويه 38/2 .

(3) الخصائص 231/1 .

(4) المرایا المقعرة 247 .

(5) جاء فى شرح المفصل لابن يعيش 286/6 قوله (الألف واللام تعاقب الإضافة) .

(6) جاء فى الإيضاح (ص 70): معاقبة الحركة للسكون .

(7) دلائل الإعجاز 48 .

وحيثما ينتقل عبد القاهر إلى المقارنة بين اللفظة تستحسن داخل سياق وتنقل على السامع في سياق آخر دلالة على المحور الرأسي الاستبدال فإلاستحسن والوحشة يرتبطان بممارسة الاختيار، والاختيار أساس علاقة الاستبدال⁽¹⁾ ويطالعنا عبد القاهر الجرجاني في مقدمات كتابه (دلائل الإعجاز) بنص يشرح فيه نظريته اللغوية يقول فيه "ومما يجب إحكامه بعقب هذا الفصل الفرق بين قولنا حروف منظومة وكلم منظومة وذلك أن نظم الحروف هو تواليها في النطق فقط وليس نظمها بمقتضى عن معنى .. فلو أن واضع اللغة كان قد قال: (ربض) مكان (ضرب) لما كان في ذلك ما يؤدى إلى فساد، وأما نظم الكلم فليس الأمر فيه كذلك لأنك تقتفى في نظمها آثار المعاني وترتيبها على حسب ترتيب المعاني في النفس، فهو إذن نظم يعتبر فيه حال المنظوم بعضه مع بعض ، وليس هو النظم الذى معناه ضم الشيء إلى الشيء كيف جاء واتفق، وكذلك كان عندهم نظيراً للنسج والتأليف والصياغة والبناء والوشى والتجوير وما أشبه ذلك مما يوجب اعتبار الأجزاء بعضها مع بعض حتى يكون لو ضِعَّ كُلُّ حَيْثُ وُضِعَ عِلَّةٌ تقتضى كونه هناك وحتى لو وضع في مكان غيره لم يصلح"⁽²⁾، يشتمل هذا النص على ثلاثة أركان من أركان النظرية اللغوية العربية الأولى: اللغة نظام علامات ويتضح ذلك في قوله (حروف منظومة) والثاني: اعتبارية العلامة ويتمثل ذلك في قوله (فلو أن واضع اللغة كان قد قال (ربض) مكان (ضرب) لما كان في ذلك ما يؤدى إلى فساد)، والركن الثالث الأهم في النظرية هو النظم أو العلاقات التى يُقتفى في نظمها آثار المعاني وترتيبها حسب ترتيب المعاني في النفس وتتجلى عبقرية الجرجاني في قوله (وما يجب إحكامه الفرق بين قولنا حروف منظومة وكلم منظومة) حيث قصد بكلمة (منظومة) الأولى نظام العلامات في حين قصد بالثانية النظم.

وثمة فرق بين النظم والنظام ذلك أن النظم ركن أو فكرة من أفكار النظام وهذا ما توضحه فكرة النظام عند الدكتور تمام حسان "فاللغة عنده - منظمة عرفية للرمز إلى نشاط المجتمع وهذه المنظمة تشتمل على عدد من الأنظمة - النظام الصوتي والنظام الصرفي والنظام النحوي- يتألف كل واحد منها من مجموعة من المعاني تقف بإزائها مجموعة من الوحدات التنظيمية أو المباني المعبرة عن هذه المعاني، ثم من طائفة من

(1) انظر: المرايا المقررة 256 .

(2) دلائل الإعجاز 50 - 51 .

العلاقات التي تربط ربطاً إيجابياً والفروق (القيم الخلافية) التي تربط ربطاً سلبياً بإيجاد المقابلات ذات الفائدة - بين أفراد كل من مجموعة المعاني أو مجموعة المباني " (1).

ففكرة النظم التي يقصدها الجرجاني تندرج عند الدكتور تمام حسان ضمن فكرة النظام النحوي الذي يعنى بالعلاقات بين التراكيب، على الرغم من أن عبد القاهر ربط المعنى بالتركيب ربطاً وثيقاً بخلاف الدكتور تمام الذي جعل للدلالة مستوى خاصاً به، ويوضح الدكتور تمام فكرة العلامة اللغوية بقوله عن النظام إنه (يتألف من مجموعة من المعاني تقف بإزائها مجموعة من الوحدات التنظيمية أو المباني المعبرة عن هذه المعاني)، هذا وقد وضع الدكتور تمام حسان ضابطاً للنظام في كتابه (الأصول) بأنه "تشابك فيه العلاقات العضوية حتى يصبح بهذا التشابك بنية جامعة مانعة لا يستطيع نفى شيء منها ولا إضافة شيء إليها" (2).

وعن العلاقة بين الرمز والمعنى فقد قسم الدكتور تمام حسان في معرض حديثه عن الرموز اللغوية في كتاب (اللغة بين المعيارية والوصفية) العلاقة بين الرموز اللغوية ومعانيها ثلاثة أقسام: الأول هو قسم العلاقة الطبيعية ومثل لها بأن الإحساس بتقلص المعدة يُعلم بالجوع فالرمز هو الإحساس بتقلص المعدة والمعنى هو الجوع، والثاني هو قسم العلاقة المنطقية، فعند النظر إلى السحاب مثلاً إن كانت داكنة توقعنا المطر، وإن كانت بيضاء صافية كان لذلك معنى آخر، أما النوع الثالث من أنواع العلاقة بين الرمز والمعنى فهو العلاقة العرفية (الاعتباطية) وهي من وجهة نظر الدكتور تمام حسان أهم من سابقتها لوجودها في الدلالات اللغوية فالعلاقة بين الاسم والمسمى غير طبيعية ولا منطقية ولكنها عرفية ونتيجة من نتائج الوضع (3) هذا ولم يفرط علماء النص في الحديث عن نظام العلامات ومفهوم العلامة واعتباطيتها مكتفين بما قدمه سوسير حيث اعتبروا أنفسهم امتداداً لنظريته اللغوية فبنوا أفكارهم على فكره وشحدوا همهم في سبر أغوار النص واكتشاف كنهه.

(ب) شبكة العلاقات :

لقد أفرط عبد القاهر في شرح فكرة النظم في كتاب دلائل الإعجاز إلى الحد الذي يجعل القارئ يظن أنه كتاب في النظم ليس غير والحق أنه كتاب في بيان إعجاز القرآن،

(1) اللغة العربية معناها ومبناها 34 .

(2) الأصول 53 .

(3) انظر: اللغة بين المعيارية والوصفية 110 - 111 .

وأفرط علماء العربية من بعده في شرح هذه الفكرة فأفردوا مؤلفات كثيرة تناول فكرة النظم وتشرح فكر عبد القاهر اللغوي إلا أن هؤلاء أغفلوا جانباً مهماً وهو أن عبد القاهر عندما يذكر النظم تارة يقصد به النظم من حيث هو وضع الكلام الوضع الذي يقتضيه علم النحو وتارة يقصد به التعليق، والحق أن فكرة التعليق هي أهم ما في فكرة النظم فهي تهدف إلى إنشاء العلاقات بين المعاني النحوية بواسطة القرائن أو ما يسمى عند علماء النص معايير ضبط النص أو معايير النصية.

وقد فطن عبد القاهر إلى أهمية فكرة التعليق فبدأ بالحديث عن نظم الكلام بحسب المعاني ثم أتبع ذلك بنظم الكلام ومكان النحو منه ويتضح ذلك من خلال ثلاثة نصوص أسوقها مرتبة ترتيب ورودها في كتاب دلائل الإعجاز، الأول يقول فيه " ليس الغرض بنظم الكلم أن توالى ألفاظها في النطق بل أن تناسقت دلالتها وتلاقت معانيها على الوجه الذي اقتضاه العقل وكيف يتصور أن يقصد به إلى توالى الألفاظ في النطق بعد أن ثبت أنه نظم يعتبر فيه حال المنظوم بعضه مع بعض وأنه نظير الصياغة " ⁽¹⁾، ويقول في النص الثاني " لا نظم في الكلم ولا ترتيب حتى يعلق بعضها ببعض ويبني بعضها على بعض وتجعل هذه بسبب من تلك " ⁽²⁾ وفي النص الثالث يبين عبد القاهر مكان النحو من نظريته فيقول " ليس النظم إلا أن تضع كلامك الوضع الذي يقتضيه علم النحو وتعمل على قوانينه وأصوله وتعرف مناهجه التي فهمت فلا تزيغ عنها وتحفظ الرسوم التي رسمت لك فلا تخل بشيء منها، وذلك أنا لا نعلم شيئاً يبتغيه الناظم بنظمه غير أن ينظر في وجوه كل باب وفروقه " ⁽³⁾، أي أن عبد القاهر يولى التعليق عناية واهتماماً، ليس معنى ذلك أنه يغفل دور نظم الألفاظ وتتابعها في الكلام، إن المسألة تشبه إلى حد كبير ما توصل إليه العلماء من أن الاهتمام بالمعاني لا يقلل من قيمة الألفاظ وكذلك الاهتمام بالتعليق أو العلاقات لا يقلل من قيمة نظم الألفاظ وتواليها في الكلام .

إن فكرة النظم عند الجرحاني تركز على عنصرين أساسيين هما التعليق ومقتضيات علم النحو، وتعليق الكلام من أجل بناء بعضه على بعض يقتضي إدراك جميع أصناف العلاقات التي تحصل بين المكونات المجردة للغة ⁽⁴⁾.

(1) دلائل الإعجاز 51 .

(2) دلائل الإعجاز 54.

(3) دلائل الإعجاز 69- 70 .

(4) انظر: التلقى والتواصل الأدبي للدكتور أحمد المنادى 118 .

وقد شرح عبد القاهر جوهر فكرة النظم في نص اشتمل على بعض عناصر مكونات النظرية اللغوية عنده، يقول فيه "ينبغي أن ينظر إلى الكلمة قبل دخولها في التأليف وقبل أن تصير إلى الصورة التي بها يكون الكلم إخباراً وأمرًا ونهيًا واستخبارًا وتعجبًا، وتؤدي في الجملة معنى من المعاني التي لا سبيل إلى إفادتها إلا بضم كلمة إلى كلمة وبناء لفظة على لفظة، وهل يقع في وهم أن تتفاضل الكلمتان المفردتان من غير أن ينظر إلى مكان تقعان فيه من التأليف والنظم بأكثر من أن تكون هذه مألوفة مستعملة، وتلك غريبة وحشية؟... وهل نجد أحدًا يقول: هذه اللفظة فصيحة إلا وهو يعتبر مكانها من النظم وحسن ملائمة معناها لمعاني جارقتها، وفضل مؤانستها لأخواتها" (1) فاللفظة المفردة في رأى عبد القاهر علامة تدل على شيء أو فكرة ما، ولكنها لا تحدث معنى مفيداً إلا في بناء لغوى. أي أن النظم لا يتحقق في الكلمة " حتى يعلق بعضها ببعض ويبني بعضها على بعض " (2). والواقع أن ما يقوله الجرجاني هنا ينم عن وعى متقدم فالقول إن الكل هو الذي يحدد قيمة الجزء يقع في صلب نظرية النقد الجديد وهو الذي يبني عليه علماء النص أفكارهم (3).

وفكرة تضافر القرائن تشبه إلى حد كبير فكرة النظم، وإن لفظة (تضافر) تعادل (الضم) أو (النظم) إلا أن الدكتور تمام حسان استطاع أن يفيد من فكرة توظيف المصطلح في حين تناول الجرجاني فكرته في إطار سرد شامل للفكرة فنراه " يعود مرات ومرات إلى تأكيد أهمية العلاقات التي تمكن الألفاظ مجتمعة من تحقيق الدلالة " (4). وقد قسم الدكتور تمام حسان قرائن التعليق (5) قسمين كبيرين: حالة تعرف من المقام ومقالية تعرف من النص أو المقال أو بمعنى أدق ترتبط بالنص أو المقال، والقرائن المقالية تنقسم قسمين كبيرين أيضاً قسم للقرائن المعنوية وآخر للقرائن اللفظية، ويندرج تحت قسم القرائن المعنوية مجموعة من القرائن هي الإسناد والتخصيص والنسبة والتبعية والمخالفة، ويندرج تحت قسم القرائن اللفظية مجموعة من القرائن هي الإعراب والرتبة والصيغة والمطابقة والربط والتضام والأداة والتنغيم، وتشمل قرينة الإسناد المسند إليه

(1) دلائل الإعجاز 47 .

(2) دلائل الإعجاز 54 .

(3) انظر: المرايا المقعرة 238 .

(4) المرايا المقعرة 238 .

(5) قرائن التعليق أحد ثلاثة أقسام كبرى هي القرائن المادية والقرائن العقلية وقرائن التعليق، انظر: اللغة العربية معناها ومبناها 190 .

والمسند، في حين تشمل قرينة التخصيص التعدية والغائية والمعية والظرفية، والنسبة تضم معاني الحروف والإضافة، أما التبعية فتشمل النعت والعطف والتوكيد والبدل⁽¹⁾.

وكما أفاد الدكتور تمام من إمامه بالتراث فاختار لنظريته لفظة القرائن، أفاد كذلك من هذا التراث في تقسيمه لأنواع القرائن فاللفظ والمعنى والإسناد والتخصيص والنسبة والتبعية والمخالفة والإعراب والتضام والربط والأداة والتنغيم والتعدية والغائية والمعية كلها مصطلحات تراثية، إلا أن الدكتور تمام استطاع توظيف هذه المصطلحات ثم قسمها تقسيماً واعياً مطوراً نظريته في تصافر القرائن معتمداً على فكرة النظم عند عبد القاهر وإمامه بالتراث اللغوى العربى، وضرب مثلاً لتطبيق نظريته بقوله: ضرب زيد عمراً وراح يشرح كيفية تحليل هذه الجملة البسيطة من خلال فكرة تصافر القرائن فقال "وإذا طلب إلينا أن نعرب جملة مثل: (ضرب زيد عمراً) نظرنا إلى الكلمة الأولى (ضرب) وجدناها قد جاءت على صيغة (فعل) ونحن نعلم أن هذه الصيغة تدل على الفعل الماضي فهي تندرج تحت قسم أكبر من أقسام الكلم يسمى (الفعل) ومن هنا نبادر إلى القول بأن (ضرب فعل ماض) ثم ننظر بعد ذلك في (زيد) فنلاحظ أنه ينتمى إلى مبنى الاسم (قرينة الصيغة) وأنه مرفوع (قرينة العلامة الإعرابية) وأن العلاقة بينه وبين الفعل الماض علاقة إسناد (قرينة تعليق معنوية) وأن رتبته التأخر (قرينة الرتبة) وأن الفعل معه مبنى للمعلوم (قرينة الصيغة)، والفعل مسند إلى المفرد الغائب (قرينة المطابقة) وبسبب كل هذه القرائن نصل إلى أن (زيد) هو الفاعل، ثم ننظر بعد ذلك في (عمراً) ونلاحظ أنه ينتمى إلى مبنى الاسم (قرينة الصيغة)، وأنه منصوب (قرينة العلامة الإعرابية) وأن العلاقة بينه وبين الفعل علاقة (تعدية)، وأن رتبته من كل من الفعل والفاعل هي رتبة التأخر (قرينة الرتبة) وبسبب هذه القرائن نسارع إلى القول بأن (عمراً) مفعول به " (2).

وقد لاقى الدكتور تمام نقداً شديداً إبان ظهور الفكرة لأول مرة عام 1973، ومن النقد الذى وجه إليه أن تطبيقه لفكرته كان تطبيقاً على مستوى الجملة لا على مستوى النص إلى أن ألف الدكتور تمام كتابه (البيان في روائع القرآن) فطبق فكرة تصافر القرائن تطبيقاً موسعاً في هذا الكتاب الذى يعد بحق واحداً من أفضل الكتب التى

(1) انظر: اللغة العربية معناها ومبناها 190 .

(2) اللغة العربية معناها ومبناها 181-182 .

درست النص القرآني دراسة نصية موسعة على المستويين اللغوي والبلاغي. وليس معنى ذلك النقد التقليل من قيمة الجملة فلولا الجملة لما كان النص، ولكي يفهم النص لابد من تفكيكه إلى وحداته المكونة له (الجملة)، ولكي يفكك النص لابد من الاعتماد على إدراك بنيته العليا مما يعد شرطاً ضرورياً لتحليل علاقاته وضبط خواصه، وإذا كان النص يتكون عادة من كلمات وجمل، فإن أجزاءه الطبيعية ليست مؤلفة من تلك الكلمات أو مركبة من مجموعة من الجمل؛ لأن الوقوف عند هذه الوحدات بمستواها اللغوي الصرف لن يسهم في الكشف عن الخواص النوعية البنيوية المميزة للنص⁽¹⁾.

ويجاء مقارنة بين الجملة التي طبق عليها الدكتور تمام حسان فكرته وشرح الشيخ عبد القاهر لقوله تعالى: ﴿وَأَشْتَعَلَ الرَّأْسُ شَيْبًا﴾⁽²⁾ نفهم كيف أفاد الدكتور تمام حسان من فكر عبد القاهر؟، يقول الجرجاني إن الشرف في الآية لا يمكن نسبته إلى الاستعارة "ولكن لأن يُسلك بالكلم طريق ما يسند الفعل فيه إلى الشيء وهو لما هو من سببه فيرفع ما يسند إليه ويؤتى بالذي الفعل له في المعنى منصوباً بعده مبيناً أن ذلك الإسناد وتلك النسبة إلى ذلك إنما كان من أجل هذا الثاني ولما بينه وبينه من الاتصال والملابسة .. وذلك أنا نعلم أن (اشتعل) للشيب في المعنى وإن كان هو للرأس في اللفظ، واعلم أن في الآية شيئاً آخر من جنس النظم وهو تعريف الرأس بالألف واللام وإفادة معنى الإضافة من غير إضافة وهو أحد ما أوجب المزية"⁽³⁾ ففي نص الجرجاني ألفاظ هي عند الدكتور تمام حسان قرائن مثل الإسناد والنسبة والملابسة والاتصال (الربط).

وقد أدرك الدكتور تمام حسان أهمية التعليق مثلما أدرك عبد القاهر ذلك من قبل يقول "ولا شك أن أصعب هذه القرائن من حيث إمكان الكشف عنها هي قرينة التعليق لأنها قرينة معنوية خالصة تحتاج إلى تأمل"⁽⁴⁾ وليس من الضروري أن تتحقق جميع القرائن في النص المراد تحليله وإنما يغني بعضها عن بعض عند أمن اللبس "فالقرائن تتصافر على إيضاح المعنى الوظيفي النحوي والقرينة تسقط عند إغناء غيرها عنها"⁽⁵⁾، فكما أن معايير النص ليس من الضروري أن تتحقق في كل نص، وأنه من الممكن أن

(1) انظر: بلاغة الخطاب وعلم النص، للدكتور صلاح فضل 253.

(2) مريم {4}

(3) دلائل الإجاز 82-83.

(4) اللغة العربية معناها ومبناها 182.

(5) اللغة العربية معناها ومبناها 240.

يتحقق الاكتمال النصي بأقل قدر منها ، فكذلك القرائن يغنى بعضها عن بعض ويمكن فهم النص بأقل قدر منها .

هذا وقد أولى علماء النص عناية كبيرة لفكرة العلاقات، حيث لجئوا في تفسيرات النص إلى قواعد دلالية ومنطقية وتداولية إلى جوار القواعد التركيبية وحددوا للنص مهام بعينها لا يمكن أن ينجزها نحو الجملة، لقد عنى علم اللغة النصي في دراسته لنحو النص بظواهر تركيبية نصية مختلفة منها: علاقات التماسك النحوي النصي، وأبنية التطابق والتقابل والتراكيب المحورية والتراكيب التابعة وحالات الحذف والجمل المفسرة، والتنويعات التركيبية، وغيرها من الظواهر التركيبية التي تخرج عن إطار الجملة المفردة. والتي لا يمكن تفسيرها تفسيراً كاملاً دقيقاً إلا من خلال وحدة النص الكلية⁽¹⁾. والصلة بين نحو الجملة ونحو النص وثيقة إلى الحد الذي لم تنجح معه كل محاولات الفصل بينهما، إلا أن ذلك لا يعنى الإخفاق في توضيح مهام نحو النص حيث يرى (فان دايك) أن مهمة نحو النص هي صياغة قواعد تمكنا من وصف الأبنية وصفاً محكماً متكاملاً⁽²⁾، إن الجملة في النص ذات دلالة جزئية ولا يمكن أن تتقرر بالتحديد الدلالة الحقيقية لكل جملة داخل ما يسمى بكلية النص إلا بمراعاة الدلالات السابقة واللاحقة في ذلك التسلسل أو التتابع الجملي، إذ ينظر إلى النص مهما صغر حجمه على أنه وحدة كلية مترابطة الأجزاء، فالاعتداد هنا ليس بالامتداد الطولي للنص بل بالأبنية الكبرى المتلاحمة داخليا التي يقدمها النص ولاشك أن الجمل يمكن أن تستقل بدلالاتها الجزئية إذا كان التوجه إلى الحكم على هذه الجزئيات، ولكن إذا أريد حكم كلى لا يستند إلى أشتات فلا يستقيم ذلك التوجه، فالنص لا يميز وجوداً مستقلاً لعناصره، حيث لا تكون القيم الجزئية ذات اعتبار كبير إلا باشتراكها في القيمة الكبرى المتكونة من ذلك التكوين الأكبر⁽³⁾.

وقد حدد كل من بوجراند ودريسلر مفهوم النص بأنه حدث تواصلى يلزم لكونه نصاً أن تتوافر له سبعة معايير للنصية هي السبك والحبك والقصد والقبول والإعلام والمقامية والتناص، أى أن نحو النص يشمل النص وسياقه وظروفه وفضاءاته ومعانيه المتعاقلة القبلية والبعدية مراعيًا ظروف المتلقى وثقافته وأشياء أخرى كثيرة تحيط

(1) انظر: علم لغة النص المفاهيم والاتجاهات، للدكتور سعيد حسن بحيرى 131 .

(2) انظر: علم لغة النص 132 .

(3) انظر: علم لغة النص 136 .

بالنص⁽¹⁾. والتحليل النصي يبدأ دائماً من البنية الكبرى وهي تتسم بدرجة قصوى من الانسجام والتماسك، ويصبح النص متماسكا عندما تقبل كل جملة فيه أن تفسر أو تؤول في خط داخلي يعتبر امتداداً بالنسبة لتفسير غيرها من العبارات الماثلة في النص ومن هنا فإن مفهوم النص تتحدد خصائصه بفكرة التفسير النسبي أى تفسير بعض أجزائه بالنسبة إلى مجموعها المنتظم كليا⁽²⁾.

وعن طريق مفهوم البنية الكبرى استطاع علماء النص مقاومة الفكرة الشائعة عن أن التماسك النصي يتحدد فحسب على مستوى علاقات الترابط بين المتتاليات والجمل، لأن هذا المستوى الأخير لا يقدم سوى الأبنية الصغرى، وتظل البنية الكبرى هي التمثيل الدلالي الكلي الذى يحدد معنى النص باعتباره عملاً كلياً فريداً، وبدون هذه البنية الكبرى والقواعد التى تحكمها يمكن أن نزلق إلى تصور التماسك النصي على اعتبار أنه مجرد رابط سطحي بين الوحدات الجزئية بينما نجد أن هذه البنية الكبرى لا تؤدي فحسب إلى التماسك الكلي بل تؤدي أيضاً إلى التماسك الجزئي على مستوى الجمل، ومعنى هذا أن تحليل النصوص يعتمد على ملاحظة التعالق والترابط بين الأبنية الصغرى والبنية الكبرى الكلية للنص⁽³⁾.

وعند إجراء موازنة بين النظريات الثلاث من حيث فكرة العلاقات نجد أن الدكتور تمام حسان قد قسم القرائن المقالية قسمين كبيرين أحدهما للقرائن اللفظية والآخر للقرائن المعنوية، والحق أن هذين القسمين يعادلان معيارين من معايير النص هما السبك والحبك، فالقرائن اللفظية من إعراب ورتبة ومطابقة وتضام بالإضافة إلى الأداة والتنغيم تندرج عند علماء النص ضمن معيار السبك، في حين تندرج القرائن المعنوية من إسناد وتخصيص ونسبة وتبعية ضمن معيار الحبك.

هذا وقد أدرك كل من الدكتور تمام حسان وأصحاب النص أهمية المقام في تحديد المعنى أو دلالة النص فأفرد الدكتور تمام حسان قسماً كبيراً قسماً للقرائن المقالية سماه القرائن الحالية أو المقامية، وخصص علماء النص للمقامية معياراً منفرداً ضمن معايير النص، وقد عنى البلاغيون العرب بفكرة المقام حين قالوا: (لكل مقام مقال) و(لكل كلمة مع صاحبها مقام) أى أن فكرة المقام عرفها البلاغيون العرب منذ ألف سنة تقريباً

(1) انظر: نحو النص اتجاه جديد فى دراسة النحو العربى ، للدكتور أحمد عفيفى 294 .

(2) انظر: بلاغة الخطاب وعلم النص 255 .

(3) انظر: بلاغة الخطاب وعلم النص 266 .

وهي تضم المتكلم والسامع والظروف والعلاقات الاجتماعية والأحداث. وقد أولى علم اللغة النصي اهتماماً بالتعبير عن هدف النص فيما سُمي بمعيار القصدية الذي فطن إليه الدكتور تمام حسان عندما قال في تقديم كتاب (اللغة العربية معناها ومبناها) "لابد أن يكون المعنى هو الموضوع الأخص لهذا الكتاب لأن كل دراسة لغوية - لا في الفصحى فقط بل في كل لغات العالم - لابد أن يكون موضوعها الأول والأخير هو المعنى وكيفية ارتباطه بأشكال التعبير المختلفة" ⁽¹⁾ ولعله قصد بالمعنى هنا معيار (القصدية)، ليس ذلك فحسب بل أفرد بحثاً موجزاً في الكتاب نفسه تحت عنوان (غايات الأداء) ⁽²⁾ قصد منه غايات النصوص وأهدافها ومن غايات الأداء - عنده - التشجيع والمصادقة والتشبيط والشم والتمنى والترجى واللعن والفخر والتحدى والتحضيض والاستخفاف والتحقير والتعظيم والإخبار وغيرها من الغايات التي يهدف إليها النص ⁽³⁾ والمقبولية معيار من معايير النصية يتعلق بموقف المتلقي الذي يعطى انطباعاً عن النص (هل النص متماسك ومقبول لديه أو لا ؟) هذا المعيار فطن إليه الدكتور تمام، يقول "بحسب هذا الفهم الشامل لفكرة (المقام) يعتبر النص (المقال) غير منبت عمن ساقه ومن سيق إليه" ⁽⁴⁾ ووضح من نص الدكتور تمام أن فكرة المقام عنده أو (قرينة المقام) فكرة شاملة تضم ثلاثة معايير من معايير النص هي المقبولية والإخبارية والموقفية، أما معيار التناص الذي يختص بالتعبير عن تبعية النص لنصوص أخرى أو تداخل النص مع غيره من النصوص فإن الدكتور تمام حسان يرى أن "ذلك ليس غريباً على الفكر الإسلامى على كل حال فمن العبارات المشهورة في عرف المفسرين للنص القرآني أن القرآن يفسر بعضه بعضاً وأن السنة تخصص عموم القرآن وأن الاستشهاد وسيلة من وسائل التوثيق" ⁽⁵⁾.

ويوضح الدكتور تمام حسان في كتاب (اللغة العربية معناها ومبناها) مفهوم التناص قائلاً "إن من المقال ما يتصف بصفات معينة أو ما يتوافر له مزايا معينة تجعله صالحاً للاستحضار في المقامات التي تشبه مقامه الأصلي الذي قيل فيه فيصبح المقال جزءاً من المقام الجديد فيدخل في تحليل هذا المقام الجديد" ⁽⁶⁾.

(1) اللغة العربية معناها ومبناها 9 .

(2) انظر: اللغة العربية معناها ومبناها 363 .

(3) انظر: اللغة العربية معناها ومبناها 364 .

(4) اللغة العربية معناها ومبناها 351 .

(5) البيان في روائع القرآن 1/ 403 .

(6) اللغة العربية معناها ومبناها 340 .

وقد أجرى الدكتور تمام حسان موازنة بين فكرته عن تضافر القرائن وفكر الجرجاني عن النظم واصفاً محاولة الجرجاني في تفسير العلاقات السياقية أنها (أذكى محاولة في تاريخ التراث العربي حتى الآن) ⁽¹⁾، وقد استشهد الدكتور تمام بنصين للجرجاني الأول يقول فيه " وإذ قد عرفت أن مدار أمر النظم على معاني النحو وعلى الوجوه والفروق التي من شأنها أن تكون فيه ،فاعلم أن الفروق والوجوه كثيرة ليس لها غاية تقف عندها ونهاية لاتجد لها ازدياداً بعدها، ثم اعلم أن ليست المزية بواجبة لها في أنفسها ومن حيث هي على الإطلاق ولكن تعرض بسبب المعاني والأغراض التي يوضع لها الكلام ثم بحسب موقع بعضها من بعض واستعمال بعضها من بعض " ⁽²⁾ والثاني يعتمد إلى أن النظم " ليس شيئاً غير توخى معاني النحو فيما بين الكلم " ⁽³⁾، وقد علق الدكتور تمام على ذلك قائلاً " إن " النظم كما فهمه عبد القاهر هو نظم المعاني النحوية في نفس المتكلم لابتداء الكلمات في صورة جملة " ⁽⁴⁾، وعد لفظه (الفروق) التي وردت في النص الأول إشارة ذكية إلى ماسماه القيم الخلافية أو المقابلات بين المعنى والمعنى أو بين المبنى والمبنى، وأن قول الجرجاني (موقع بعضها من بعض) إشارة إلى ما اشتهر في عرف النحاة باسم الرتبة ، وأن قوله (استعمال بعضها من بعض) إشارة إلى فكرة التضام ⁽⁵⁾.

وإذا وسعنا دائرة الموازنة بين تضافر القرائن والنظم يمكن القول إن نوعي القرائن اللفظية والمعنوية يعادلان النظم والتعليق على الترتيب فالقرائن اللفظية والنظم يعينان ببناء الكلمات في جمل من خلال ترتيب المعاني في النفس أولاً ثم ترتيب الألفاظ في النطق بحسب ترتيب المعاني في النفس (السبك)، والقرائن المعنوية والتعليق يعينان بإنشاء العلاقات بين المعاني النحوية (الحبك) .

وقد تحدث الجرجاني عن قرينة الإعراب، وظل يكرر أن ليس النظم إلا توخى معاني النحو، يقول " وإذا نظرنا في ذلك علمنا أن لا محصول لها غير أن تعمد إلى اسم فتجعله فاعلاً لفعل أو مفعولاً أو تعمد إلى اسمين فتجعل أحدهما خبراً عن الآخر أو تتبع الاسم اسماً على أن يكون الثاني صفة للأول أو تأكيداً له أو بدلاً منه أو تجيء باسم بعد تمام

(1) اللغة العربية معناها ومبناها 186 .

(2) دلائل الإعجاز 74 .

(3) دلائل الإعجاز 293 .

(4) اللغة العربية معناها ومبناها 186 .

(5) انظر: اللغة العربية معناها ومبناها 187 .

كلامك على أن يكون الثاني صفة أو حالا أو تمييزاً أن تتوخى في كلام هو لإثبات معنى أن يصير نفياً أو استفهاماً أو تنياً فتدخل عليه الحروف الموضوعة لذلك أو تريد في فعلين أن تجعل أحدهما شرطاً في الآخر فتجىء بهما بعد الحرف الموضوع لهذا المعنى⁽¹⁾، إن فكرة الإعراب عند الجرجاني ركن مهم من أركان النظم إلا أن هذا الركن يجب أن يفهم أولاً ولكن لا يكتفى به في تحليل النصوص، يقول الجرجاني متحدثاً عن الألفاظ "وأما لو خلت من معانيها حتى تتجرد أصواتا وأصداء حروف لما وقع في ضمير ولا هجس في خاطر أن يجب فيها ترتيب ونظم، وأن يجعل لها أمكنة ومنازل"⁽²⁾، ويقول "الألفاظ مغلقة على معانيها حتى يكون الإعراب هو الذي يفتحها، وأن الأغراض كامنة فيها حتى يكون هو المستخرج لها"⁽³⁾، وقد فطن الدكتور تمام أيضاً إلى أهمية هذه القرينة إلا "أن العلامة الإعرابية بمفردها لا تعين على تحديد المعنى فلا قيمة لها بدون تضافر القرائن وهذا القول صادق على كل قرينة أخرى بمفردها سواء أكانت معنوية أم لفظية وبهذا يتضح أن (العامل النحوي) وكل ما أثر حوله من ضجة لم يكن أكثر من مبالغة أدى إليها النظر السطحي والخضوع لتقاليد السلف والأخذ بأقوالهم على علاقتها"⁽⁴⁾.

وأفرد الجرجاني لقرينة الرتبة فصلاً موسعاً سماه (القول في التقديم والتأخير) بدأه بقوله "هو باب كثير الفوائد جم المحاسن واسع التصرف بعيد الغاية لا يزال يفتر لك عن بديعة ويفضى بك إلى لطيفة، ولا تزال ترى شعراً يروقك مسمعه ويلطف لديك موقعه، ثم تنظر فتجد سبب أن راقك ولطف عندك أن قدم فيه شىء وحول اللفظ من مكان إلى مكان"⁽⁵⁾.

وقد درس في هذا الفصل ألوانا من التقديم والتأخير غلب عليها الطابع البلاغي مثل تقديم المسند إليه مع الاستفهام التقريرى والإنكارى، والاستفهام له التقديم والصدارة وتقديم الاسم والمضارع مع الاستفهام، والرتبة عند الدكتور تمام حسان "قرينة لفظية وعلاقة بين جزأين مرتبين من أجزاء السياق يدل موضع كل منهما من الآخر على

(1) دلائل الإعجاز 54 .

(2) دلائل الإعجاز 54 .

(3) دلائل الإعجاز 38 .

(4) اللغة العربية معناها ومبناها 207 .

(5) دلائل الإعجاز 85 .

معناه " ⁽¹⁾، تتصافر هذه القرينة مع غيرها من القرائن لتعين المعنى، أما الصيغة عند الدكتور تمام فهي قرينة لفظية تدل على الباب النحوى، ومعانى الصيغ وثيقة الصلة بالعلاقات السياقية " فالفعل اللازم لا يصل إلى المفعول بغير واسطة، وبعض الصيغ معناها اللزوم وذلك كالمطاوع والمبنى للمجهول من المتعدى لواحد وأفعال السجاياء مثل فعل يفعل بضم العين وغير ذلك فمعنى الصيغة الصرفية ينبئ عن علاقتهما السياقية " ⁽²⁾، يقول الجرجاني عن الصيغة "ليس الغرض بنظم الكلم (الصيغ) أن توالى ألفاظها فى النطق بل أن تناسقت دلالتها وتلاقت معانيها على الوجه الذى اقتضاه العقل " ⁽³⁾، ومن القرائن اللفظية الربط وهو من أهم القرائن اللفظية، وهذه القرينة تدل على اتصال أحد المترابطين بالآخر " والمعروف أن الربط ينبغى أن يتم بين الموصول وصلته وبين المبتدأ وخبره وبين الحال وصاحبها وبين المنعوت ونعته وبين القسم وجوابه وبين الشرط وجوابه، ويتم الربط بالضمير العائد الذى تبدو فيه المطابقة كما يفهم منه الربط أو بالحرف أو بإعادة اللفظ أو إعادة المعنى أو باسم الإشارة أو (أل) أو دخول أحد المترابطين فى عموم الآخر " ⁽⁴⁾.

والحق أن قرينة الربط عند الدكتور تمام حسان فكرة جزئية لا تكاد تتعدى ما شرحه من وسائل الربط فى النص السابق أما الربط عند عبد القاهر الجرجاني فمعناه أوسع ومفهومه أشمل فهو يكاد يعادل النظم أو التعليق، فالنظم ربط بين معانى المفردات فى الذهن يترتب عليه ترتيب الألفاظ فى الجمل والمتواليات والتعليق ارتباط المفردات من خلال ما بينها من علاقات، أى أن الربط بهذا المفهوم الواسع عند عبد القاهر يعادل معيارى السبك والحبك عند علماء النص، يقول الجرجاني موضحاً مفهوم الربط " أن تتحد أجزاء الكلام ويدخل بعضها فى بعض، ويشترط ارتباط ثان منها بأول، وأن يحتاج فى الجملة أن تضعها فى النفس وضعاً واحداً، وأن يكون حالك فيها حال الباني يضع بيمينه ههنا فى حال ما يضع بيساره هناك " ⁽⁵⁾ وقد تحدث عبد القاهر عن الربط حديثاً مطولاً تحت عنوان الفصل والوصل.

(1) اللغة العربية معناها ومبناها 207 .

(2) اللغة العربية معناها ومبناها 210- 211 .

(3) دلائل الإعجاز 51 .

(4) اللغة العربية معناها ومبناها 213 .

(5) دلائل الإعجاز 78 .

أما التضام فالمقصود به عند الدكتور تمام حسان " أن يستلزم أحد العنصرين التحليليين النحويين العنصر الآخر فيسمى التضام هنا (التلازم) أو يتنافى معه فلا يلتقى به ويسمى (التنافي) ⁽¹⁾، فالتلازم يكون بين المبتدأ والخبر والفعل والفاعل والصفة والموصوف والحال وصاحبها والصلة والموصول والجار والجرور، والتنافي معناه استبعاد أحد المتنافيين عند وجود الآخر مثل (أل) والإضافة، أو التثوين والإضافة.

وقد عبر الجرجاني عن فكرة التضام هذه عندما تحدث عن معاني النحو بقوله: "ليست الزمية بواجبة لها في أنفسها ومن حيث هي على الإطلاق ولكن تعرض بسبب المعاني والأغراض التي يوضع لها الكلام ثم بحسب موقع بعضها من بعض واستعمال بعضها من بعض " ⁽²⁾، ويقول " فبنا أن ننظر إلى التعليق فيها والبناء وجعل الواحدة منها بسبب من صاحبها ما معناه وما محصوله وإذا نظرنا في ذلك علمنا أن لا محصول لها غير أن تعمد إلى اسم فتجعله فاعلا لفعل أو مفعولا أو تعمد إلى اسمين فتجعل أحدهما خبرا عن الآخر أو تتبع الاسم اسما على أن يكون الثاني صفة للأول أو تأكيدا له أو بدلا منه أو تجئ باسم بعد تمام كلامك على أن يكون الثاني صفة أو حالا أو تمييزاً أو أن تتوخى في كلام هو لإثبات معنى أن يصير نفياً أو استفهاماً أو تمنيا فتدخل عليه الحروف الموضوعية لذلك، أو تريد في فعلين أن تجعل أحدهما شرطاً في الآخر فتجىء بهما بعد الحرف الموضوع لهذا المعنى " ⁽³⁾.

ففي قول الجرجاني (جعل الواحدة منها بسبب من صاحبها) إشارة إلى ما يسمى في عرف الدكتور تمام حسان قرينة التضام، وفي باقي جمل هذا النص إشارة إلى قرائن التعليق المعنوية فالعلاقة بين المبتدأ والخبر أو الفعل والفاعل علاقة إسناد والعلاقة بين النعت والمنعوت أو التأكيد والمؤكد علاقة تبعية، ومعاني حروف النفي والاستفهام والشرط تندرج عند الدكتور تمام حسان ضمن قرينة النسبة.

ومن قرائن التعليق عند الدكتور تمام القرائن الحالية أو المقامية التي تعرف من المقام والتي تسمى عند علماء النص معيار المقامية، الذي يقول عنه الجرجاني " إن الألفاظ تثبت لها الفضيلة وخلافها في ملائمة معنى اللفظة لمعنى التي تليها أو أشبه ذلك مما لا

(1) اللغة العربية معناها ومبناها 217 .

(2) دلائل الإعجاز 74 .

(3) دلائل الإعجاز 54 .

تعلق له بصريح اللفظ، وما يشهد لذلك أنك ترى الكلمة تروك وتؤنسك في موضع ثم تراها بعينها تثقل عليك وتوحشك في موضع آخر" ⁽¹⁾ ففي قول الجرجاني (أو ما أشبه ذلك مما لا تعلق له بصريح اللفظ) إشارة إلى فكرة المقام وكلمة (موضع) في هذا النص معناها المقام، وإن هذا النص ليطابق قول العرب (لكل مقام مقال ولكل كلمة مع صاحبها مقام).

هذا وقد تحدث الجرجاني عن معيارى القصد والإعلام فقال: "الدلالة على الشيء هي لا محالة إعلامك السامع إياه وليس بدليل ما أنت لا تعلم به مدلولاً عليه، وأن الناس إنما يكلم بعضهم بعضاً ليعرف السامع غرض المتكلم ومقصوده" ⁽²⁾ وعن المقبولية فإن مجمل فكرة عبد القاهر الجرجاني في النظم والتعليق هدفها نظم بناء سليم تتعلق معاني أجزائه ببعضها تعلقاً محكماً، هذا البناء هدفه إعلام السامع أو القارئ بالأفكار التي يقصدها الناظم، فيحكم المتلقى أو القارئ على النص بمقبولية النص لديه وإحكامه وتماسكه.

المعنى ودلالة النص :

لاشك أن المعنى هو الهدف الأخص لأي دراسة لغوية، والمعنى ثلاثة أنواع معنى معجمي، ومعنى وظيفي، ومعنى دلالي، أما المعنى المعجمي فهو معنى الكلمة خارج السياق، أو هو المعنى الصامت المخزون بين دفتي المعجم، وحين يتكلم الفرد يستعين بهذا المخزون الصامت فينقل كلمات المعجم من الصمت أو السكون إلى الحركة، والمعجم ليس نظاماً من أنظمة اللغة وإنما هو قائمة مفردات مخزونة في الذهن تنتقل بمجرد استخدامها في نسق لغوي من اللغة إلى الكلام ذلك أن اللغة مجموعة أنظمة يضاف إليها المعجم.

أما الكلام فهو النطق حسب أنظمة هذه اللغة، وأما المعنى الوظيفي فيقصد به (المعنى النحوي) أو هو ما يعادل كلمة (باب) في كتب النحاة كالابتداء والخبر والفاعلية والمفعولية وغيرها من المعاني النحوية وعندما قال النحاة (الإعراب فرع المعنى) إنما قصدوا المعنى النحوي لا المعجمي ولا الدلالي، أما المعنى الدلالي فقد قسمه الدكتور تمام

(1) دلائل الإعجاز 48 - 49 .

(2) دلائل الإعجاز 343 .

حسان قسمين⁽¹⁾: المعنى المقالى والمعنى المقامى أما المعنى المقالى فيتكون من المعنيين الوظيفى والمعجمى، والمعنى المقامى يتكون من ظروف أداء المقال، والمعنى الدلالى هو أهم الأنواع الثلاثة لاعتماده على المقال والمقام فى آن معا، وكتاب دلائل الإعجاز هو كتاب فى علم المعانى، عمد عبد القاهر الجرجاني فيه إلى دراسة المعانى دراسة شاملة فأشار إلى المعانى المفردة وعلاقتها بالألفاظ أو ما يعرف فى علم اللغة الحديث بفكرة العلامة أو الدال والمدلول كما أشار الجرجاني إلى أهمية المعنى الدلالى للتركيب أو النص، والأهم عند عبد القاهر الجرجاني عندما يتحدث عن المعانى فى هذا الكتاب هو نوع المعانى النحوية أو الوظيفية التى تركز عليها فكرة النظم عنده، وهذا لا يعنى أنه أفرد كل كتابه للمعنى الوظيفى وإنما استحوذت فكرة المعانى الوظيفية على جل اهتمام عبد القاهر لأنها مرتكز رئيس تركز عليه فكرة النظم، يقول الجرجاني " ذلك لأنه أمر ضرورى لا يمكن الخروج منه "⁽²⁾.

وقد أورد الجرجاني نصا يشتمل على أنواع المعنى الثلاثة المعجمى والدلالى والوظيفى يقول فيه " ينبغى أن ينظر إلى الكلمة قبل دخولها فى التأليف وقبل أن تصير إلى الصورة التى بها يكون الكلم إخباراً وأمراً ونهياً واستخباراً وتعجباً (المعنى المعجمى) وتودى فى الجملة معنى من المعانى التى لا سبيل إلى إفادتها إلا بضم كلمة إلى كلمة، وبناء لفظة على لفظة (المعنى الوظيفى) هل يتصور أن يكون بين اللفظين تفاضل فى الدلالة حتى تكون هذه أدل على معناها الذى وضعت له من صاحبها على ماهى موسومة به (المعنى الدلالى) "⁽³⁾.

وقد قسم الجرجاني المعنى الدلالى قسمين فقال: " الكلام (يقصد المعنى الدلالى) على ضربين: ضرب أنت تصل منه إلى الغرض بدلالة اللفظ وحده وذلك إذا قصدت أن تخبر عن زيد مثلاً بالخروج على الحقيقة فقلت خرج زيد، وبالاتفاق عن عمرو فقلت عمرو منطلق، وضرب آخر أنت لا تصل منه إلى الغرض بدلالة اللفظ وحده ولكن يدلك اللفظ على معناه الذى يقتضيه موضوعه فى اللغة ثم تجد لذلك المعنى دلالة ثانية تصل بها إلى الغرض ومدار هذا الأمر على الكناية والاستعارة والتمثيل، وإذ قد عرفت

(1) انظر: اللغة العربية معناها ومبناها 339 .

(2) دلائل الإعجاز 256 .

(3) دلائل الإعجاز 47 .

هذه الجملة فهانها عبارة مختصرة وهى أن تقول المعنى تعنى بالمعنى المفهوم من ظاهر اللفظ والذى تصل إليه بغير واسطة، وبمعنى المعنى أن تعقل من اللفظ معنى ثم يفضى بك ذلك المعنى إلى معنى آخر " (1).

لم يكتف عبد القاهر الجرجاني بدلالات الصياغة اللغوية وإنما بحث فيما وراء هذه الدلالات فيما سماه المعنى ومعنى المعنى ، وقد ربط عبد القاهر الجرجاني بين المعاني المعجمية والمعاني الوظيفية ربطاً رائعاً يمكن من خلاله القول إن المعنى الدلالي ناتج عن المعاني المعجمية والمعاني الوظيفية وفكرة المقام :

المعاني المعجمية + المعاني الوظيفية + المقام = المعنى الدلالي الأكبر

يقول الجرجاني: " ومما ينبغي أن يعلمه الإنسان ويجعله على ذكر أنه لا يتصور أن يتعلق الفكر بمعاني الكلم أفراداً ومجردة من معاني النحو " (2)، ذلك أن الفصاحة - وهى قمة الدلالة عنده - لا تظهر في أفراد الكلمات وإنما تظهر بالضم على طريقة مخصوصة، فقوهم (أي القاضي عبد الجبار والخطابي وابن سنان وغيرهم) بالضم لا يصح أن يراد به النطق باللفظة بعد اللفظة من غير اتصال يكون بين معنييهما " (3)، وليس أدل على اهتمام عبد القاهر بالمعنى من تكرار إثبات المزية للمعنى لا للفظ في عشرات المواقع في كتابه دلائل الإعجاز يقول "وجملة الأمر أنه لا بد لقولنا (الفصاحة) من معنى يعرف فإن كان ذلك المعنى وصفاً في ألفاظ الكلمات المفردة فينبغى أن يشار لنا إليه ، وتوضع اليد عليه ، ومن أبين ما يدل على قلة نظرهم أنه لاشبهة على من نظر في كتاب تذكر فيه الفصاحة أن الاستعارة عنوان ما يجعل به اللفظ فصيحاً وأن انجاز جملته والإيجاز من معظم ما يوجب للفظ الفصاحة، وأنت تراهم يذكرون ذلك ويعتمدون ثم يذهب عنهم أن إيجابهم الفصاحة للفظ بهذه المعاني اعتراف بصحة ما نحن ندعوهم إلى القول به من أنه يكون فصيحاً لمعناه " (4).

وللوصول إلى المعنى في صورته الشاملة - يقول الدكتور تمام حسان - " لا بد أن نستخدم الطرق التحليلية التى تقدمها لنا فروع الدراسات اللغوية المختلفة وهى

(1) دلائل الإعجاز 177 .

(2) دلائل الإعجاز 226 .

(3) دلائل الإعجاز 256 .

(4) دلائل الإعجاز 296 .

الصوتيات والصرف والنحو (أي الفروع الخاصة بتحليل المعنى الوظيفي) ثم المعجم (وهو الخاص بالمعنى المعجمي) والحقائق التي نصل إليها بواسطة التحليل على هذه المستويات حقائق جزئية بالنسبة إلى المعنى الدلالي " (1).

وعن دلالة النص يقول الدكتور تمام حسان " حين تنفرد العلاقات العرفية بين الكلمات ومعانيها بالوجود فلا تكون هناك وظائف ولا مقام، إن مجرد وضوح هذه العلاقات لا يؤدي إلى أي فهم للكلمات المفردة على المستوى المعجمي إذ إنها هنا لم توضع في سياق، ووضوح معنى المفردات لا يكشف حتى عن المعنى الحرفي الذي سميناه (ظاهر النص) أو (معنى المقال) لأن الذي لدينا هنا (المفردات) وليس (النص)، وذلك أيضاً لأن معنى (ظاهر النص) يحتاج إلى وظائف (المعنى الوظيفي) كما يحتاج إلى العلاقات العرفية بين المفردات ومعانيها (المعنى المعجمي) إذ منهما معاً يكون معنى (المقال) وانفراد العلاقات العرفية بين المفردات ومعانيها يجعل الأمر بحاجة أيضاً إلى معنى (المقام) أو المعنى الاجتماعي الذي هو شرط لاكتمال (المعنى الدلالي) الأكبر " (2) والمقام هو مجموع الأشخاص المشاركين في المقال إيجاباً وسلباً ثم العلاقات الاجتماعية والظروف المختلفة في نطاق الزمان والمكان (3) وعند علماء النص فإن دلالة النص تعتمد على تفكيك النص إلى الوحدات المكونة له، وتفكيك النص إلى الوحدات المكونة له يعتمد على الإدراك السليم لبنيته العليا (4)، أي أن الوصول إلى دلالة النص يعتمد على فهم الجزئيات المكونة له، كما أن فهم هذه الجزئيات يعتمد على المعرفة الأولية لدلالة النص. إن المعنى الكلي للنص أكبر من مجموع المعاني الجزئية للمتواليات الجمالية المكونة له، ولا تنجم الدلالة الكلية له إلا بوصفه بنية كبرى شاملة فالنص ينتج معناه بحركة جدلية أو تفاعل دائم بين أجزائه (5) فالجملة داخل النص ذات دلالة جزئية ولا يمكن أن تنفرد بالتحديد الدلالة الحقيقية لكل جملة داخل ما يسمى بكلمة النص إلا بمراعاة الدلالات السابقة واللاحقة في ذلك التابع الجملي (6).

(1) اللغة العربية معناها ومبناها 341 .

(2) اللغة العربية معناها ومبناها 341- 342 .

(3) انظر: اللغة العربية معناها ومبناها 351 .

(4) انظر: بلاغة الخطاب وعلم النص ، للدكتور صلاح فضل 253 .

(5) انظر: علم لغة النص 73 .

(6) انظر: علم لغة النص 135 .

وتحليل النص لفهم دلالاته الكلية لا ينحصر في مقولات اللغة (المقال) على الرغم من أنه مشكل منها ذلك أنه يراعى جوانب لا تتمثل في الواقع اللغوي الفعلي بل توجد في الواقع الخارجي الذي يعبر عن مقولات غير لغوية خارج النص ويلج علماء النص على أن النص عملية إنتاج بمعنى أنه ليس وصفاً أو سرداً لحقائق اللغة، بل يترك مساحة كبيرة من الحرية للمفسرين لكي يقوموا من خلال عمليات التفكيك أو التجزئة بالكشف عن الأبنية الدلالية الكبرى التي تجمع المتواليات الجمالية، وتخلق توالداً مستمراً، هذه الأبنية الدلالية الكبرى يستطيع مفسر النص أن يربط من خلالها بين الجزئيات اعتماداً على خبرته وثقافته وتوجهه⁽¹⁾. فالنص رمز لغوي مركب، والرمز المركب إنما يساق للدلالة على معنى مركب، وأن تركيب هذه الدلالة يبدو في صورة مزيج من المستويات الدلالية بعضها أصواتي وبعضها صرفي وبعضها نحوي أو معجمي أو دلالي، ولكل مستوى من هذه المستويات اللغوية نصيب من الدلالة، وتتجه الدراسة إلى جميعها بتحليل يشبه تحليل ألوان الطيف الضوئي، وتسمى هذه المستويات مجتمعة باسم (الطيف اللغوي)⁽²⁾.

القارئ (المتلقي) والنص :

إن من يقرأ (دلائل الإعجاز) لعبد القاهر الجرجاني يخلص إلى أن الجرجاني وهو يناقش مسألة الإعجاز والبلاغة والفصاحة كان لديه منطلق أساسي لم يفصح عنه منذ البداية وهو أن النص لكي يحقق تأثيره لابد من مراعاة عملية التواصل ومكوناتها المحدودة في ثلاثة عناصر هي المبدع والنص والمتلقي⁽³⁾، يقول الجرجاني: " كما لا يتصور أن يكون هاهنا خبر حتى يكون مخبر به ومخبر عنه، كذلك لا يتصور أن يكون خبر حتى يكون له مخبر يصدر عنه ويحصل من جهته أو يكون له نسبة إليه، وتعود التبعة فيه عليه، فيكون هو الموصوف بالصدق إن كان صادقاً وبالكذب إن كان كاذباً (دور المتلقي)⁽⁴⁾.

(1) انظر: علم لغة النص 111 .

(2) انظر: اللغة بين المعيارية والوصفية 117 .

(3) انظر: التلقي والتواصل الأدبي قراءة في نموذج تراثي للدكتور أحمد المنادى 183- 184 .

(4) دلائل الإعجاز 342 .

أما المبدع فإن الأسلوب يرتبط أساساً بعقله وفكره قبل أن يرتبط باللغة، ولذلك اشترط الجرجاني أن يكون التناسق أولاً في عقل المبدع وفكره وبعدهما في الألفاظ⁽¹⁾، يقول: " ليس الغرض بنظم الكلام أن توالى ألفاظها في النطق، بل أن تناسقت دلالتها وتلاقت معانيها على الوجه الذى اقتضاه العقل " ⁽²⁾، إنه استحضار للحظات التأمل والمعاناة والشعور عند المبدع حيث يرتب المعاني في نفسه على نحو متسق منسجم، ثم يأتي وفق ترتيب المعاني في النفس ترتيب الكلام، فالصورة الجمالية قبل أن تدرك في لغة المبدع وعمله، تدرك في انفعالاته النفسية، وتأملاته الذاتية الداخلية⁽³⁾ وبعد إنجاز المبدع لمهمته يكون النص أو الخطاب أو العمل الأدبي حلقة وصل بين المبدع والمتلقى الذى لا يمكن النظر إليه على أنه متلق واحد، وإنما هو قراءة من بين قراءات مختلفة تتعامل مع الخطاب حسب آفاقها ومداركها، ولعل هذا من الأسباب المباشرة التى تجعل النص يخترق الزمان والمكان ويحيا مع متلقيه وقارئه، وإذا كان من أصناف المتلقين من يقرأ ويؤول بحثاً عن المتعة والتسلية فإن منهم كذلك من يتلقى الخطاب وهو يروم استنباط القراءات المتناهية⁽⁴⁾.

إن عبد القاهر الجرجاني لا مس جانباً مهماً من مباحث الدلالة يرتبط بالجانب التداولي وهو المتلقي الذي يبذل جهداً في فك شفرة المعنى من خلال الاستدلال العقلي على المعنى المقصود، وهذا من شأنه أن يجعل المتلقى طرفاً مساهماً في بناء النص من حيث تأويله وبيان دلالاته⁽⁵⁾ يقول الجرجاني مخاطباً القارئ: " وجملة ما أردت أن أبينه لك أنه لا بد لكل كلام تستحسنه، ولفظ تستجده من أن يكون لاستحسنك ذلك جهة معلومة وعلّة معقولة⁽⁶⁾ لقد كان الجرجاني على وعى كبير بأهمية عنصر التأثير في المتلقى، والتأثير عنده قمة جمالية النص، هذا التأثير يجعل المتلقى يقف على معاناة المبدع، وعنصر التأثير أخذ حيزاً كبيراً في دراسة الجرجاني للصورة الشعرية حيث اعتبر الأدب قائماً على قانون نفسى يتجاذبه النظم والتأثير، فالمتلقى يستحسن الصورة أو النص الشعرى

(1) انظر: التلقي والتواصل الأدبي 184 .

(2) دلائل الإعجاز 51 .

(3) انظر: التلقي والتواصل الأدبي 185 .

(4) انظر: التلقي والتواصل الأدبي 192 .

(5) انظر: التلقي والتواصل الأدبي 194 .

(6) دلائل الإعجاز 45 .

بحسب درجات حضور جمالية النظم والتصوير⁽¹⁾، يقول الجرجاني: " واعلم أن من الكلام ما أنت ترى المزية في نظمه والحسن كالأجزاء من الصبغ تتلاحق وينضم بعضها إلى البعض حتى تكثر في العين فأنت لذلك لا تكبر شأن صاحبه حتى تستوفي القطعة وتأتى على عدة أبيات، ومنه ما أنت ترى الحسن يهجم عليك منه دفعة وبأتيك منه ما يملأ العين ضربة حتى تعرف من البيت الواحد مكان الرجل من الفضل وموضعه من الخلق " ⁽²⁾، ومن ثم يصبح القارئ في تصور الجرجاني مساهماً في تشكيل النص وبناء دلالاته.

وقد وضع الدكتور تمام حسان أن من مهام القارئ في بناء النصوص إعادة بناء المقام، يقول الدكتور تمام: " ومغزى هذا أن المعنى الحرفي غير كاف لفهم ما قيل لأنه قاصر عن إبداء الكثير من القرائن الحالية التي تدخل في تكوين المقام، وإن الكثير من نصوص تراثنا العربي قد جاء غامضاً لأن الذين رَووا هذه النصوص لم يعنوا بإيراد وصف كاف للمقام الذي أحاط بالنص ومن ثم ينبغي لنا (القارئ) أن نبذل الجهد مضاعفاً عند التصدي لشرح هذه النصوص حتى نستطيع إعادة بناء المقام على أساس من التاريخ ومن علم النفس واجتمع العربي القديم والاقتصاد القديم أيضاً والمزاوجة بين كل من أولئك بواسطة الخيال والعقل الثاقب النفاذ " ⁽³⁾.

هذا وأولى علماء النص اهتماماً بالغاً بالمتلقي " فإذا كانت البنية الكبرى للنص ذات طبيعة دلالية، وكانت متعلقة ومشروطة بمدى التماسك الكلي للنص فإن الذي يحدد إطارها هو المتلقي، لأن مفهوم التماسك ينتمي إلى مجال الفهم والتفسير الذي يضيفه القارئ على النص، وتأويل النص من جانب القارئ لا يعتمد فحسب على استرجاع البيانات الدلالية التي يتضمنها النص بل يقتضى أيضاً إدخال عناصر القراءة التي يملكها المتلقي، داخل ما يسمى بكفاءة النص.

ومعنى هذا أن القارئ لا يقوم فحسب بعملية ترجمة للبيانات دلالية في النص بل هو الذي يضع لها الإطار الذي يراها من خلاله⁽⁴⁾، وتحتاج العلاقة بين النص والقارئ إلى إيضاح تسهم اتجاهات تحليل النص فيه من خلال اهتمامها بعملية القراءة، فالنص نظام من الكتابة ولكن يندرج تحت نظام أكبر، ولهذا فإنه لا ينبغي للقارئ أن يركز على

(1) انظر: التلقي والتواصل الأدبي 197 .

(2) دلائل الإعجاز 75 .

(3) اللغة العربية معناها ومبناها 373 .

(4) بلاغة الخطاب وعلم النص 260 - 261 .

استنباط المعنى الخبرى أو يعطى له الصدارة في التحليل، كما يحدث في القراءة التفسيرية بل ينبغي على القارئ أن يركز قراءته على إدراك العلاقات بين المستويات المتعددة للغة⁽¹⁾، والقارئ حر في أن يدخل إلى النص من أى جانب منه، إذ ليس هناك طريق واحد يعد أسلم الطرق المقاربة للنص، وهو حر كذلك في أن يمتنع نفسه بالنص مهماً قصد الكاتب⁽²⁾.

وقد تركز الاهتمام على التفاعل بين القارئ ولغة النص، فالنص عالم من البنيات والدلالات يتم إنتاجها من خلال النص نفسه ولا يُغفل دور الكاتب والقارئ في تفسير النص الذي يحتاج إلى معرفة عريضة شاملة تختلف طبيعتها في اتجاهات التحليل النصي المختلفة، بمعنى أن دور القارئ لا يقتصر على مجرد تفسير ما هو قائم (بناء النص) بل يتخطى ذلك بإدخال معارف وتصورات ومقولات تثرى عملية التفسير⁽³⁾. فبنية النص إذن بنية لغوية منطوقة في المقام الأول، غير أنها مرتبطة في استمرارها وتحقق دلالتها بأركان التواصل وهي المنتج أو المنتجون والمتلقى أو المتلقون، والتفاعل بين الطرفين من خلال عملية التلقى، ذلك المكون الذى يضمن استمرار النص أو تتابع سلسلة الاتصال أو انقطاعها عند نقطة محددة أو في موضع بعينه، ويشترط في التابع تحقق المغزى، وإذا فقد النص أى عنصر من هذه العناصر انهارت بنيته وتناثرت أجزاؤه، غير أنها تظل قائمة محتفظة بدلالاتها المحددة⁽⁴⁾.

فكرة التداخل المعرفي :

إن فكرة التداخل المعرفي تشبه إلى حد كبير ما قالته العرب في تعريف الأديب بأنه: " الملم من كل فن بطرف " وإنما قصدوا بالفنون الآداب والمعارف، فالأديب أو المؤلف يجب أن يكون ملماً بالآداب والمعارف المختلفة، وإن كثيراً من المؤلفين في القرون الأولى كانوا يؤلفون في علوم شتى، فوجد أبا عبيدة معمر بن المثنى التيمى يؤلف في مجاز القرآن وغريب القرآن ومعانيه والحديث، والحيوان، والأمثال، والأخبار، والقبائل، والمنافرات، والتاريخ، واللغة⁽⁵⁾، ونجد ابن السراج يؤلف في الأصول، والاشتقاق، واحتجاج

(1) انظر: علم لغة النص 159 .

(2) انظر: إلى علم لغة النص 160 .

(3) انظر: علم لغة النص 162- 164 .

(4) انظر: علم لغة النص 187 .

(5) انظر: الفهرست لابن النديم 81- 82 .

القراءة والشعر والشعراء، والرياح والهواء والنار، والأخبار والمذكرات ⁽¹⁾ هذا من ناحية التأليف.

أما من ناحية التحليل فقد وضع العلماء شروطاً في المفسر لآى الكتاب العزيز يجب أن يلم بها وهى أن يكون حافظاً لكتاب الله العزيز، فاهماً لقراءاته، مطبقاً لشرائعه، حافظاً للحديث وعلومه، متابعاً للتفاسير الأخرى، على دراية تامة بعلوم اللغة من صرف ونحو ومعاجم، وأن يكون ملماً بالأحداث التاريخية التى تساعده فى فهم أسباب نزول الآيات ومن ثم تفسير الآيات تفسيراً غير منفصل عن مقاماتها وسياقاتها الاجتماعية أى أن العلماء العرب فطنوا إلى فكرة التداخل المعرفى منذ بدء ظاهرة التأليف، وكان ذلك مواكبا لتفسير القرآن الكريم، وشرح الأحاديث النبوية الشريفة، فالشروط التى وضعتها العرب فى المفسر تمثل فكرة التداخل المعرفى خير تمثيل، وفكرة التداخل المعرفى تتطلب دراية واسعة بفروع العلوم المختلفة يقول الدكتور سعيد حسن بحيرى فى تقديمه لكتاب علم لغة النص " فقد تشعبت المنابع التى استقى منها (التداخل المعرفى) مفاهيمه وتصوراتها ومناهجه، واتسم هو نفسه بقدرة فائقة على استيعاب كل ذلك الخليط المتباين، بل وتشكيل بنية منسجمة قادرة على الحفاظ على ذلك التداخل من جهة، وإبراز جوانب التفارق بينه وبين العلوم الأخرى من جهة ثانية " .

هذه الفكرة يجب أن تتحقق لدى المبدع والمتلقى كليهما، فالمبدع يوظف ما يتداخل عنده من أفكار وثقافات ومعارف يرتقى من خلالها بإبداعه، والمتلقى يوظف هذا التداخل المعرفى فى فهم النص وسبر أغواره.

ولم تخل أفكار عبد القاهر الجرجاني من فكرة التداخل المعرفى، يقول: " قد فرغنا الآن من الكلام على جنس المزية وأنها من حيز المعانى دون الألفاظ، وأنها ليست لك حيث تسمع بأذنك، بل حيث تنظر بقلبك وتستعين بفكرك وتعمل رويتك وتراجع عقلك، وتستجد فى الجملة فهمك " ⁽²⁾، لعل فى قول الجرجاني: " إشارة إلى فكرة التداخل المعرفى لدى المتلقى حيث يستعين بفكره (معارفه المتداخلة) ويعمل رويته ويراجع عقله لفهم المعنى، ويقول فى موضع آخر " وجملة الحديث أنا نعلم ضرورة أنه لا

(1) انظر: الفهرست 94 .

(2) دلائل الإعجاز 59 .

يتأتى لنا أن ننظم كلاماً من غير روية وفكر " ⁽¹⁾ ففي هذا إشارة إلى فكرة التداخل المعرفى لدى المبدع الذى يحكم فكره ومعارفه من أجل الارتقاء بنظمه وإبداعاته .

ويقول الدكتور تمام حسان عن التداخل المعرفى: " لعل السبب الرئيسى فى ضرورة التزام طلاب اللغة العربية وأدبها بدراسة مقررات من التاريخ الإسلامى والفلسفة الإسلامية والتفسير والحديث والأدب والشريعة وغيرها أن طالب اللغة العربية حين ينظر فى نص أدبى معين ينبغى أن يكون له من المعلومات الشاملة فى هذه الفروع جميعاً ما يعينه على فهم المقام الذى قيل فيه هذا النص حين يلخص له هذا المقام، وقد تعودنا أن نقول لطلبتنا دائماً عن هذه الفروع التى يطلقون عليها (العلوم المساعدة) إنها فروع إيضاح لمقامات النصوص التى نصادفها فى التراث العربى " ⁽²⁾.

وقد شكلت الخواص التركيبية والدلالية والاتصالية للنصوص صلب البحث النصى، بمعنى أن البحث يتحقق على مستويات ثلاثة أساسية هى: المستوى النحوى، والمستوى الدلالى، والمستوى التداولى، ولا يجوز الفصل بين هذه المستويات مع مراعاة مواضع التماس بينها وبين علوم الأدب والبلاغة والأسلوب، مع إدخال عناصر أخرى تعود إلى علم النفس وعلم الاجتماع، والفلسفة والمنطق وغيرها، ذلك أن فكرة التداخل المعرفى تهدف إلى الجمع بين العناصر اللغوية والعناصر غير اللغوية لتفسير الخطاب أو النص تفسيراً إبداعياً ⁽³⁾، يقول الدكتور صلاح فضل: " لا مفر لنا عند تحليل النصوص من توظيف معرفتنا الأدبية بخواص الأجناس التى تنتمى إليها هذه النصوص فعندما نشرع فى قراءة رواية مثلاً تصبح المكونات التى نتوقعها والتى تحدد معالمها الأساسية فى تجربتنا الجمالية والإنسانية خاضعة لطبيعة مفهومنا عن الرواية، مما يجعل الأمر مختلفاً عندما نشرع فى قراءة قصيدة أو مقال صحفى " ⁽⁴⁾.

(1) دلائل الإعجاز 235 .

(2) اللغة العربية معناها ومبناها 347 .

(3) انظر: مقدمة علم لغة النص (هـ) .

(4) بلاغة الخطاب وعلم النص 254 .

خاتمة

يستقى هذا البحث أهميته من أنه يسرد عناصر النظرية اللغوية العربية التي أنتجتها عقول وأفكار المبدعين العرب في الفترة من الجاحظ حتى عبد القاهر الجرجاني، وأن النظرية اللغوية العربية حديثة عهد بالنسبة للنظرية العربية التي نضجت وأصبحت شبه متكاملة مع نهاية القرن الخامس الهجري، وما فعله الغربيون من تطوير لأركان نظريتهم وتقديمها في أزهى ثوب كان على العرب أن يفعلوه بعد عبد القاهر الجرجاني مباشرة أي أن الفكر اللغوي لو تواصل بعد عبد القاهر الجرجاني لكان لدينا ما يدعيه الغرب من فضل في تأسيس نظرية لغوية مكتملة الأركان منذ القرن السادس الهجري تقريباً، وثمة ثلاث أفكار تكفي بمفردها لشرح عناصر النظرية اللغوية العربية هي النظم وتضافر القرائن ونحو النص، وإن كان مردها جميعاً إلى فكرة النظم فإن كل فكرة بمفردها تضم أركان النظرية اللغوية العربية، ويمكن القول إن هذه الأفكار هي ظلال نصوص لمعنى واحد أو لفكرة واحدة هدفها جميعاً بناء وتحليل النصوص الأدبية إلا أنه يمكن القول إن فكرة النظم هي فكرة بناء وتحليل معاً، أما تضافر القرائن فهي فكرة تحليل أكثر منها فكرة بناء، ونحو النص فكرة تحليل، وهذه أيضاً ميزة اتسم بها الفكر اللغوي لعبد القاهر الجرجاني مع مراعاة أنه لا يمكننا الفصل بين الهدف من البناء والتحليل. وبعد دراسة عناصر النظرية اللغوية العربية المتمثلة في النظم وتضافر القرائن ونحو النص يمكن التوصل إلى النتائج الآتية :

1. يعد كتاب (اللغة العربية معناها ومبناها) للدكتور تمام حسان حلقة وصل بين فكرة النظم ونحو النص.
2. الوصول إلى دلالة النص يعتمد على فهم الجزئيات المكونة له، كما أن فهم هذه الجزئيات يعتمد على المعرفة الأولية بدلالة النص.
3. نظرية النظم لعبد القاهر الجرجاني هي فكرة بناء وتحليل أما تضافر القرائن فهي فكرة تحليل أكثر منها بناء ، ونحو النص فكرة تحليل .
4. فكرة التداخل المعرفي يجب أن تتحقق لدى المبدع والمتلقي كليهما، فالمبدع يوظف ما يتداخل عنده من أفكار ومعارف يرتقى من خلالها بإبداعه، والمتلقي يوظف هذا التداخل المعرفي في فهم النص وسبر أغواره، وثمة فرق بين التداخل المعرفي وما يقوله البعض من أن الفكرة متداخلة، فالتداخل المعرفي فكرة ذهنية معناها تكامل المعارف داخل الذهن هذا التكامل يساعد في عمليتي البناء والتحليل، أما تداخل الفكرة فيظهر بصورة مادية من خلال الإفصاح عن الفكرة نطقاً أو كتابة ومعناه عدم وضوح الفكرة وأن لبساً يعترض أفكار المبدع أو المتلقي .

*** ** *